

الزومالة
أ. عبدالرحيم الأحمدي



الزومالة لون من ألوان الشعر الشعبي الحماسي، في منطقة ما بين جدة ورايح إلى ما جاورهما من مناطق مثل وادي فاطمة وخليص وما حولهما، بل وفي مناطق أخرى إن لم تكن زومالة فهي من شعر العرصة الذي يكتب مسميات عدة وفق مراميه وأهدافه التي تنشأ في مجتمع الزومالة - كما اعتقد - ووليدة الحذاء الحربي الذي كان شائعاً فيما قبل الوحدة الوطنية لبلادنا إبان التناحر القبلي واضطراب الأوضاع الأمنية، وكان الحذاء الحربي من الشعر الحماسي المتميز بالإيجاز وتكثيف العبارة ودقة اختيار المفردات المعبرة، التي تلهب المشاعر وتستنهض الهمم للثأرات واسترداد الحقوق المسلوقة التي تعجز الدولة عن استردادها، أما بعد أن قامت الدولة السعودية وبسطت نفوذها وأقامت أجهزتها الإدارية واضطلعت بدورها الراعي لشؤونها فقد زالت الحاجة إلى الحذاء وحل محله شعر الوطنيات والاجتماعيات الذي يظهر في مناسباته ومهرجاناته، إلا أن الزومالة استمرت تؤدي هذين الغرضين الوطني والاجتماعي.

وفي منطقة الزومالة أكثر ما تتحلى في مناسبات الأعياد حين تتزاور الجماعات المعادية أو الاستنكاف كعوة جماعة لعماسية اجتماعية، وعندها تكون الزومالة من مراسم التزاور والتواصل، فيأتي المدعوون جماعات برناسة كبيرهم ومصاحبة شاعرهم ورواة البنائق البروقية لا المتكئة بالبراص، حتى إذا بلغوا مكان اللقاء هب المستضيفون لاستقبالهم وقبل المصافحة والترحيب يتقدم شاعر الضيوف فيلقي زومالته ومن خلفه المرددون ينشدون الزومالة يتبعها إطلاق البنائق في تتابع يظهر براعة الإرامه وتناغم طاقات باناهم، حتى إذا فرغ الشاعر المضيف من إعداد الرث تقدم بزومالته وأنصت الضيوف إلى القائلة وترديد المشددين من ورثته والإرامه من خلفهم، ثم يصافح الجمعان بعضهم بعضاً ويتناقون إلى المجالس المعدة لاستقبالهم.

أما عناصر الزومالة فتتألف من جزئين (الأول) سلام وتحية وتمجيد للمضيف شخصاً وجماعة، وذكر مناقب وتلاحم الطرفين (الثاني) طرح موضوع يتصل بالمناسبة أو طرح لغز، كل ذلك لتذكير المضيف بأمر مشترك أو اختبار سرعة بديهة الشاعر المضيف الذي يفغ في بوتقة امتحان لا يحسد عليها، فالفرصة المتاحة له للجابة عن تساؤل الضيوف لا تتجاوز الدقائق، بخلاف شاعر الضيوف الذي أخذ وقتاً طويلاً لاعداد تحيته وتشكيل لغزه، كما أن على الشاعر المضيف أن يقتفي الشاعر الضيف ملتزماً بنسق وقافية زومالته، فيصنق رده الترحيب بالضيوف وذكر مناقبهم والعلاقات المتيبة التي تشد الجماعتين ومن ثم يجيب عن تساؤل الضيف كما سيأتي لاحقاً.

وهذا الفن الشعري لسبب من العارفين بأدبياته وتفصيلاتها غير أنه تقيت إهداء من الأديب الشاعر سعد الجحدي، أحد مؤلفاته عن الأدب الشعبي دراسات في الموروث بعنوان «موسوعة الألعاب الشعبية» صدر منها جزءان، الأول عن الخبيتي والريجي والثاني عن الزومالة ويعتزم المؤلف استقصاء هذه الفنون في موسوعته، ساداً بذلك فراغاً كبيراً في المكتبة الثقافية، وما لا شك في أن هذا العمل يتطلب جهداً معنياً للتعريف بهذه الفنون، والشاعر المؤلف من أبناء منطقة الزومالة وشعرائها وله مشاركات في ميدانها قبل أن يكون مؤلفاً.

ومن الطلعي على هذا المؤلف سدنتي الزومالة إلى رحابها وأود بهذا الطرح أن يشد غبري لهذا الفن الأدبي الاجتماعي فيقطع على لون شعري ما زال سيداً في مجاله يذكّر الناس بما يشد أواصرهم إلى بعضه، وبالعلاقات الوطيدة التي تقوم بين أسلافهم، وقد توصلت بعد قراءة سريعة إلى تعريف بالزومالة وأغراضها المتمثل بعضها فيما يلي:

في المعاليدات لم يزل التواصل الجماعي وفق منهجه الموروث، وذلك في القرى المتجاورة، ولم يؤثر الهاتف أو وسائل الاتصال الأخرى على هذه العادة، بل إن الالتزام بمواعيدها أصبح معتمداً تاريخه وعند التأخر عن الموعد المعروف يسود الانشغال ويجري التماس للظلمة وبخاصة في مناسبة العيد، ومما أورد الجحدي في كتابه الزومالة التالية بمناسبة العيد حيث قال الضيوف:

سلام يا أهل الديرة اللي عمارت قصورها
 الديرة اللي مستقلة في اللوازم دوم نورها
 من سابق ألمة ليذا الحين طالع دورها
 فيها الزعيم اللي يشرف بالقرب والبعد

حنا رجال في اللوازم ما تضيق صدورها
 يشهد لنا تاريخنا في بروها وبيورها
 جينا على عز وشرف لورودها وصدورها
 وليا حيتونا حضرننا عيد والا غير عيد
 وعادة لا تثار في المعايمة ضحايا تذكي
 يا مرجبا من عزوة نفرح بها لحضورها
 يا مرجبا الغالين دايماً ما يشتت دورها
 أيامنا وليالها يا رجينا ذا دورها
 انتم وحنا كل حزة تلبس التوب الجديد

ما اذكم يا اهل الوفا في أيامنا وشهورها
 ما فيه حاجة بيننا نطلب لها كخورها
 انتم وحنا من قبائل ماضيات عصورها
 هذا كلام الصدق وانته تعريف العلم الوكيد
 وفي زومالة تواصل يطلب الضيف من مضيفه تكرار تبادل الزيارات فيقول:
 سلام يا اهل خليص جيناكم على مذهب وقتنا
 ردة وما تضفي على من يسمح الإجمال منا
 حنا ترانا لا دعينا في اللوازم ما تتوفا
 يا جيل نلقى رجينا وما للصحب الا الصحب

من بعد ذا فاحت زهو القاف والخاطر تفتى
 ملزوم تلبينا وتخضر مثل ما حنا حضرننا
 قرر وعد يوم السعد لا تموج بالاعذار عنا
 واللي يحدد يوم يا الاحواد ما يمكن يغيب
 ويأتي الرث مرجبا ومجيباً.
 يا مرجبا ترحيب غالي من ضمير ما استكننا
 ضيف السعد يلقى الوفا والكيف من هزل ونبأ
 هذي سلوم الناس بين الناس ناصل من وصلنا
 وحنا هل الصيقاف لا تادي المتأدي له تجيب

انتم لفتيو للرجال اهل البيوت اللي تبني
 وميشرين بخير يا الاصحاب كان امهل زماناً
 ومد الوفا بيناتنا مد يوم اها ليكم واهلنا
 وليا تبادلنا الخطي من الوفا ما هو غريب
 وبمناسبة شهر الصوف:
 الأوله سلام يا راعي الدرك يا اللي زعيم في محله
 مقلط للضيفان ورجال المعزة ما ترله
 يا صقر يا شيهان ووربعه جناحيه نقله
 الخال مشعل والقبيلة يا محمد ما تهان

الثانية لو كان من سد المحيط الاطلسي لازم نصل له
 رجل يعرف الطيبة واسلوياها دايماً بحله
 مبروك شهر الصوم والغالي ترانا ما نمله
 وياجل تهايننا تقدمها وترجح بالوزان
 ليأتي الرث:
 الأوله يا مرجبا في مرجبا عد النجوم اللي مطلة
 ترحبية فيها الوفا والطيب والتكميل كله
 بالعروة اللي شوفها ييري ويشفي كل علة
 ترحبية من جمعنا بالجمع في شهر رمضان

الثانية حنا فرحنا يوم جيتونا وشروا كم نجله
 ودرج الوفا ما بيننا محدود في شمس وظله
 لو دارت الايام دورتها ولقت ما تحله
 معمور بينه ما اختلف طول الزمان
 وهناك زومالة فيها معانبة أو لوم:
 سلام والمعنى مثبت بين ضر سك والجمنا
 واللي ما يشرب من جبل جمه مصيره للظما
 واتته تعرف المارد المورود ما اذنتك عني
 النهر جري من تحت رجلك عيونك لا تشوخ

وبين الزعيم اللي ثنى حمل القضية واحتمى
 يوم المخايل زلزلت برعودها ما شفت ما
 لكته اللي راح هقشناه والطيب نما
 والصدق عاية والمذاهب عند اهلهما ما تروح
 الرث:
 يا مرجبا والعلم واضح غيرك اللي معتماً
 علم بغير ثوبت يصح لا قرار ولا سما
 وما كل من يرمي بصبب الشاح لا ما انه رمى
 وليا ثبت لك شي تبشر بالهبوب وبالصوب

موجود في وقت الطلب يوم الزعيم ملزماً
 ولو زلزلت برعودها سانس البنا ما هدمنا
 والبرح الاحمر عارفينه له حدوده لا طما
 والموقع الجودي ترشت به سفينة قوم نوح
 ويبدو ان هذه الزومالة عبر مراسلة وليس مواجهة، وهذا نوع من التواصل وأدب المراسلات الزومالية، ولمزيد من معرفة هذا الفن يحسن الرجوع للكتاب المشار إليه ففيه ما يروي الغليل.
 كتبه : عبدالرحيم الأحمدعي